شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة؛ دراسة موضوعية

د. مشهور الحبّازي *

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القدس، القدس، فلسطين.

ملخّص:

درست في هذا البحث شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة دراسة موضوعية، وجاءت دراستي في ثلاثة محاور:

الأول، عرّفت فيه بفن الهجاء لغة واصطلاحا، وبيّنت مكانته في فنون الشعر العربي بعامة، وفي فترة الدراسة بخاصة، ثم وضّحت الأسباب التي أدت إلى ظهوره وفقاً لما توافر لدي من أشعار. والثاني، درست فيه المدن التي هجاها الشعراء، ورتّبتها ترتيبا ألفبائيا. والثالث، درست فيه الأقاليم التي هجاها الشعراء، ورتّبتها أيضا ترتيبا ألفبائيا.

وقد دفعني لهذه الدراسة أمران: الأول، كثرة ما قاله الشعراء في هذا الموضوع في فترة الدراسة. والثاني، أنّ أيّا من الباحثين الذين درسوا فن الهجاء في هذه الفترة –في حدود معرفتي– لم يعطه حقّه، بل جعله جزءا من فن الهجاء، وكتب فيه –على الأكثر– ما لا يزيد عن صفحتين من القطع المتوسط. وقد استخدمت في دراستي المنهج الوصفي.

Abstract:

This study investigates satiric poems (hijja) on cities and provinces during huroub al firinja (Crusades). It is threefold: first, the art of satire is dealt with both linguistically and idiomatically, and the importance of satire in relation to Arab poetry is highlighted. The reasons behind the emergence of satire are then expounded, hinging on the availability of poems; secondly, the cities satirised by poets are minutely examined and arranged in alphabetical order; thirdly, the provinces satirised by poets are classified and organised alphabetically.

The study is carried out basically for two reasons: first, much has been written on the topic during crusades era and secondly, to the best of the researcher's knowledge, none of the scholars who have studied satiric poems has paid due attention to cities and provinces as such. The poets further consider these as a part of the art of a satire. Literature written on such kind of satire -at best- is thin and unsatisfactory. I adopted the descriptive approach in the study.

الهجاء في اللغة:

هجاه يهجوه هجواً وهجاءً وتهجاءً: شتمه بالشعر، وهو خلاف المدح. وقيل: الوقيعة في الأشعار، والمرأة تهجو زوجها: تذمّه، وتشكو صحبته.(١)

الهجاء في الاصطلاح:

هو تعبير عن عاطفة السخط والغضب تجاه شخص أو جماعة تنقم منها.(٢) وهو إحصاء للعيوب والمثالب التي هي في الحقيقة عيوب المجتمع ومثالبه، بهدف تطهير المجتمع من نقائصها واستنقاذه من براثنها(٣). وهو فن يتناول الفضائل النفسية، فيسلبها الشعراء من أصحابها الذين يهجونهم.(٤)

مكانة الهجاء في موضوعات الشعر:

الهجاء موضوع من موضوعات الشعر العربي التقليدية التي قال فيها الشعراء العرب على مرّ العصور، لأسباب عديدة، وبأساليب متنوعة، وبكميات متفاوتة، من عصر إلى عصر، ومن شاعر إلى شاعر.

وقد اختلف القدماء في تحديد مكانة الهجاء بالنسبة لموضوعات الشعر العربي، وظهر ذلك الاختلاف فيما أورده ابن رشيق القيرواني في عمدته من آراء كثيرة منها، «قال عبد الكريم: الشعر أربعة أصناف: الزهد وهو خير كله، والوصف والنعوت والتشبيه وهو ظرف كله، والهجاء وما تسرّع به الشاعر إلى أعراض الناس، وهو شرّ كله، وشعر يتكسب به(٥)». وقال بعض العلماء بهذا الشأن: «بني الشعر على أربعة أركان، وهي: المدح، والهجاء، والنسيب، والرثاء. وقال قوم: الشعر كله نوعان: مدح وهجاء، وجعل الهجاء ضد المدح»(٦).

ورأى ابن حجّة الحموي أن الهجاء بيت من بيوت الشعر العربي الأربعة، وقال: «قيل إن بيوت الشعر أربعة: فخر، ومديح، وهجاء، ونسيب».(٧)

أفضل الهجاء:

في ضوء ما سبق من تحديد مكانة الهجاء بين موضوعات الشعر العربي، حاول كثير من الدارسين وضع مقاييس، ومعايير للهجاء الجيد، وقد اختلفوا في ذلك، فمنهم من رأى أنّ أشدّ الهجاء، وأقذعه هو: ما قام على عنصر المفاضلة والمخايرة. حتى قيل: إنّ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى الحطيئة الشاعر عن الهجاء المقذع، فسأله: وما المقذع؟ فأجابه: أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء، وأشرف. وتبني شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم.(٨)

وقال خلف الأحمر: «أشدُّ الهجاء ما عفّ لفظه، وصدق معناه» وقال أبو عمرو بن العلاء:» خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها»(٩). فالمراد من ذلك صياغة الهجاء بتراكيب جميلة واضحة، ومعان عميقة، وبذلك فإنها تؤذي المهجو بأسلوب طريف عن طريق تجاهله أو التشكيك به(١٠).

والهجاء عند جرير بن عطية الخطفي هو: المضحك، وكان يوصي بقوله: «إذا هجوتَ فأضحك».[١١] والهجاء عند ابن حمدون: «مرهبة للكريم، ومحلبة من اللئيم، وهو على الشاعر أجدى من المديح المضْرِع، فلذلك بالغ فيه من جعله الذريعة إلى نيل مباغيه».[١٢]

أسلوب الهجاء:

رأى بعض الدارسين أنّ للهجاء أساليب متنوعة، لكن من المهم أن يتوافر في أسلوب الهجاء الذي يلقى قبولاً عند الناس؛ عامتهم وخاصتهم الآتي: الوضوح، والبساطة، وقلّة الصنعة والتكلّف، والتلميح.[١٣]

ورأى آخر أن الشعراء كانوا يميلون إلى الجد في هجائهم فيعمدون إلى انتقاص المهجو ببيان تخلّفه في ميادين الشجاعة والكرم في عبارة رصينة، مع ميل إلى التهكم، والسخرية، والحفاظ عل التعفّف عن نهش الأعراض، وتتبع العورات، واعتماد التّلويح خير من التصريح، والمزاح أعذب من الجدّ.[١٤]

ملكة الشاعر الهجّاء:

لا بدّ لكل شاعر يريد الإبداع في الهجاء، والتفوق على غيره، أن تكون له عين ناقدة، دقيقة الملاحظة بحيث تلتمس العيوب، وتحسن اختيار مواطن الضعف، وتعرف أين ترمي فريستها، ومتى. كما لا بد أن يتوافر له لسان لذع يلمح إلى فكرته في لياقة، ويسخر من فريسته مداعباً... فيسعى إلى إضحاك المتلقي عن طريق أذنه قبل تطريب عقله.[١٥]

ولما كان فن الهجاء مرتبطاً بواقع الحياة، فإنّه قادر على إكمال ما فيه من فجوات تاريخية[١٦] من خلال نقده للأفراد، والمجتمعات، وأماكن وجودهم، وتصويره جوانب الضعف والنقص فيها كلها.

أنواع الهجاء:

توجد أنواع عديدة من الهجاء، منها: الهجاء الشخصي للأفراد أوالجماعات، والهجاء السياسيّ، والهجاء الدّينيّ، والهجاء الاجتماعيّ، والهجاء لأماكن السكن والمرافق العامة. وقد أبدع بعض الشعراء في هجائهم حيث صوّروا مهجويهم تصويراً هزلياً ساخراً، وضخّموا عيوبهم الجسدية والمعنوية، بحيث بدا هجاؤهم وكأنه أقرب ما يكون إلى ما يسمى اليوم فن الكاريكاتير. وهذه الأنواع ـ فيما أعلم ـ درسها الدارسون على مرّ العصور دراسات متفاوتة. لكن هناك نوع من الهجاء لم يعطه الدارسون ـ فيما أعلم ـ حقّه في دراستهم وهو هجاء المدن والأقاليم. ولذلك فإنني اخترت الكتابة فيه في هذا البحث.

تعريف هجاء المدن والأقاليم:

من خلال ما استعرضته من شعر في هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة يمكنني تعريف هذا النوع من أنواع الهجاء بأنّه: تعبير عن الغضب، وعدم الرضى، والتشاؤم، تجاه المدينة، أو الإقليم المهجو، فيلجأ بذلك الشاعر إلى ذكر عيوب المدينة، أو الإقليم، أو أهلها، أو كليهما، بهدف فضحها والنيل منها، ومن أهلها.

نشوء هجاء المدن والأقاليم، وتطوّره:

يمكن القول إنّ هجاء المدن والأقاليم ظهر في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وذلك أن محمد هدّارة عدّ هجاء المدن اتجاهاً جديداً في الهجاء، وجعله مقابلاً لمديح المدن، وقال إن أمثلة الهجاء للمدن في القرن الثاني الهجري كثيرة[(١٧)] منها هجاء أبي نواس لمدينته البصرة في قصيدتين؛ واحدة وردت في ديوانه بعنوان "الفخار فنون"، قال فيها:[(١٨)]

ألا كلُّ بصريّ يرى أنّما العلا ... مكمّهة سحقٌ لهنّ جرينُ
وإن أكُ بصريّاً فإنّ مُهاجري ... دمشقُ ولكنّ الحديثُ شجونُ
مجاورُ قوم ليس بيني وبينهم ... أواصِرُ إلاّ دعوةٌ وظنونُ

فأبو نواس يقلّل من طموح البصريّ، ويجعل العلا الذي يسعى إليه هو النخيل وخزين ثماره، وأنه لو كان بصرياً لهاجر إلى دمشق، وإن من يجاورهم لا تربطه بهم إلا الشكوك والظنون.

وثانية بعنوان «شربنا ماء بغداد، وهي أخفّ من الأولى في الهجاء لكنه يفضل فيها بغداد على البصرة في نواح كثيرة.[(١٩)]

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان هجاء المدن اتجاهاً من اتجاهات شعر الهجاء التي ظهرت بجانب هجاء الأشخاص؛ عامتهم وخاصتهم، وهذا الاتجاه هو الاتجاه الغالب. والاتجاه الثاني هجاء المجتمع، الذي تمثل في لزوميات أبي العلاء المعريّ المتوفى سنة ٤٤٩/١٠٥٨. والاتجاه الثالث كان هجاء المدن، لكنّه كان قليلاً في شعر شعراء الشام، وبعضه موجود في ديوان أبي إسحق الغزّي، إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٥٢٤/ ١١٣٠، والذي عدّه عبد الجليل عبد المهدي أكثر شعراء الشام هجاءً في فترته.[(٢٠)]

وفي عصر حروب الفرنجة اختلفت نظرة الدارسين لشعر الهجاء، فبعض الدارسين أشاروا إلى أن الشعراء أكثروا من القول فيه مع وجود اختلاف في طابعه، وخصائصه، ومادته عن الهجاء التقليدي.[(٢١)] وبعضهم الآخر أشار إلى أنّ فن الهجاء اتسع في هذا العصر لكنّه أشار أيضاً إلى أنّ ما بقي من شعر الهجاء قليل بالنسبة لما هو معروف من اتساع هذا الفن في العصور المتأخرة.[(٢٢)]

وقد جاء حديث الفريقين قصيراً وغير موف بالغرض إلا حديث شفيق الرقب فقد أعطى إلى حدّ ما صورة جيدة عن شعر الهجاء، لكنّ من أشار إلى هجاء المدن والأقاليم من الدارسين جاءت إشارته غير موفية بالغرض، فمحمد زغلول سلام قال: «وقد تعرض الهجاء للأشخاص والبلاد والأشياء الأخرى كالحمامات والمساكن، بل إنّ بعضهم هجا صحن حلاوة»(٢٣). وخالد يوسف في كتابه «الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان» تحدث عن هجاء الأقاليم والبلدان في أقل من صفحتين(٢٤)، وتحدث شفيق الرقب في بحثه «شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية» عن هجاء المدن والبلدان في صفحتين ونصف تقريباً(٢٥). والحديث كله لم يكن كافياً، ولا يعطي صورة واضحة عن هجاء المدن والأقاليم في هذه الفترة الزمنيّة.

وقد اخترت الكتابة في هذا الاتجاه من شعر الهجاء في هذه الفترة الزمنية لاعتقادي أنّ هذا الاتجاه، وعلى الرغم من ظهوره في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلاّ أنّه ما زال جديداً أمام الدارسين، فلم يوفه أحد منهم ـ فيما أعلم ـ حقّه، كما أنّ من قال فيه من الشعراء في فترة الدراسة لم يقل فيه كثيراً، ولم يتخذه على أنّه اتجاه مستقل من اتجاهات شعر الهجاء يوازي هجاء الأشخاص، أو الهجاء السياسي، أو الهجاء الاجتماعي وغيرها. لذلك فإنّني حاولت استقصاء ما أمكنني من شعر قيل في هجاء المدن والأقاليم، ومعرفة المدن والأقاليم التي هجاها الشعراء، ولماذا هجوها.

أسباب هجاء المدن والأقاليم:

الأسباب التي دعت الشعراء إلى هجاء المدن والأقاليم في هذه الفترة عديدة، وقبل الخوض فيها، أودّ إيراد ما قاله صاحب التذكرة الحمدونية في الباب الثالث والعشرين الذي جعله للهجاء والمذمّة فقال: «وقد يهجى الإنسان بهتاً وظلماً، أو تقرّباً إلى عدّو، أو عبثاً، أو إرهاباً لمن يخشى الشاعر سطوته فيجبن عن هجائه، وقد يهجى جزاء عن فعل خصّ الهاجي ولم يُعمّ»(٢٦).

والحقيقة أن ما ذكره ابن حمدون ليس بعيداً عن أسباب الهجاء للمدن والأقاليم كما حدّدتها من خلال هذه الدراسة، والتي يمكن توضيحها في الآتي:

١. الهجاء جراء عدم الحصول على العطاء المأمول من أهل المدينة وحاكمها، أو المكانة العلمية والأدبية التي سعى إليها الشاعر، أو ما كان يأمله فيها من العيش الرغد الآمن المستقر، أو لرفض الحاكم الاستماع للشاعر، أو يكون هجاء ظلم وبهتان، وعبث.
٢. شعور بعض الشعراء بالغربة في المدن التي هاجروا إليها، وكأنّهم بهجائهم لمكان

إقامتهم المؤقت يجدون لأنفسهم حوافز للعودة إلى مدنهم الأولى، وهم في هذا المجال يحنّون إلى موطنهم، ويتشوّقون إليه، ويقلّلون من مكانة المدينة التي هم فيها.

٣. الهجاء جرّاء مناخ المدينة أو الإقليم، وعدم ملاءمته للحياة، وما يلاقيه فيه الشاعر من ألم ومعاناة.
٤. هجاء ذو دوافع مذهبيّة شيعيّة، وسنيّة، وهو قليل.
٥. هجاء ردّة الفعل السريعة التي تأتي جرّاء معاناة شاعر عابر سبيل، وبحيث يكون الهجاء كأنّما هو نفثة مصدور عن حادث خاص.
٦. هجاء على سبيل الدعابة القاسية والساخرة.
٧. هجاء مدينة أو إقليم وسيلة لمدح مدينة أو إقليم آخر، أو وسيلة لمدح أشخاص خارج المدينة.
٨. هجاء التخويف، والتهديد بالرحيل عن المدينة التي هو فيها، وكأنّما هو يبتزّ أهلها بأن يحقّقوا له ما يريد أو بعضه.

ومن خلال استقصائي للشعر الذي قيل في هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة، استطعت دراسة هذا الشعر على النحو الآتي:

أولاً- هجاء المدن

هجا الشعراء في زمن حروب الفرنجة عدداً غير قليل من المدن التي عاشوا فيها، أو وفدوا إليها لأَمر ما، أو عبروها خلال تنقلهم في البلدان مع الأخذ بعين الاعتبار أنّهم كانوا يكثرون من التنقل في البلدان في زمن حروب الفرنجة جراء كثرة الحروب، وسقوط البلدان والثغور، أو بحثاً عن العطايا، أو طلباً للعلم، أو تنفيذاً لحكم حاكم، أو هرباً من أهل بلد، أو جوّها، أو بحثاً عن مكانة علمية أو اجتماعية وغيرها. فضلاً عن أن بعضهم كانت لديه الرغبة في التنقل والترحال، وكأنّما هو يتمثل قول الإمام الجويني المتوفى سنة ٤٧٨/١٠٨٥:[٢٧]

بـــلادُ الله واسعـــةٌ فضاهـــا ... ورزقُ الله في الدنيـــا فسيـــحُ
فقـــلْ للقاعديـــن علـــى هـــوانٍ ... إذا ضاقـــت بكـــم أرضٌ فسيحوا

وسأتحدّث عن المدن المهجوة وفق الترتيب الهجائي لأسمائها، وذلك على النحو الآتي:

١. إربل:

قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، في فضاء من الأرض واسع بسيط، وهي في طرف من المدينة، وفيها أسواق ومنازل، وهي شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع رقعة. وهي من أعمال الموصل، وفي ربضها زمن ياقوت الحموي مدينة كبيرة[٢٨].

وقد هجاها أبو محمد عبد الرحمن بن أبي القاسم الكناني، المعروف بابن المسجّف العسقلاني المتوفى سنة ٦٣٥/١٢٣٧، فقال: [٢٩]

إربلُ دارُ الفسق حقّاً فلا يعتمدُ العاقلُ تَعْزيزَها
لو لم تكُنْ دارَ فسوقٍ لمَا أصبحَ بيتَ النارِ دهليزَها

فهو يجعل إربل دار فسق، ويأتي بدليل على ذلك قربها من قرية بيت النار التي هي إحدى قراها. وقد ورّى الشاعر تورية حسنة في اسم القرية.

٢. أَرْثَخْشُمِيْثَنُ:

وهي مدينة كبيرة من أعمال خوارزم، قدم إليها ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦/١٢٢٨ صاحب معجم البلدان سنة ٦١٦/١٢١٩ من مَرو حيث لقي ومن معه من ألم البرد، وجمود نهر جيحون على السفينة التي كان بها، ما كاد يقتلهم، لكنّ الله جلّت قدرته فرّج عليهم بأن أوصلهم سالمين، وسكنوا خاناً في المدينة فكتب ياقوت على حائطه يذم أَرْثَخْشُمْيثَنَ، ويذكر ما لاقاه فيها قبل رحيله إلى الجرجانية التي هي على مسافة ثلاثة أيام منها، قال: [٣٠]

ذَمَمْنا رَخْشَمِيثَنَ إذ حَلَلْنا بساحاتها، لشدّة ما لقينا
أتيناها، ونحنُ ذوو يسارٍ فَعُدْنا، للشقاوة، مفلسينا
فكم برداً لقيتُ بلا سَلامٍ وكم ذُلاً، وخُسراناً مُبيْنَا
رأيتُ النارَ تُرعَدُ فيه برداً وشمسَ الأُفقِ تَحْذَرُ أنْ تبيْنا
وثلجاً تقطرُ العينان منه ووحلاً يُعجِزُ الفيلَ المتينا
وكالأنعام أهلاً، في كلامٍ وفي سَمْتٍ وأفعالاً وَديْنا
إذا خاطبتهم قالوا: بفسّاً وكم من غُصَّةٍ قَدْ جَرَّعونا
فأَخْرِجنا، أيا ربّاه! منها فإن عُدْنا، فإنّا ظالمونا
وليس الشأن في هذا، ولكن عجيبٌ أن نجونا سالمينا
ولستُ بيائسٍ، والله أرجو بُعيدَ العُسْرِ، مِنْ يُسرٍ يَلِيْنا

فياقوت في هذه الأبيات هجا مدينة أرثخشميثن جراء ما لاقاه في الطريق إليها، وخلال سكناه في أحد خاناتها، وهجوه لم يكن حقيقياً بل جاء ردّة فعل على معاناته، واستعجاله في الخروج من هذه المعاناة الشديدة، ولذلك نجده يعقّب على هذه القصيدة بقوله: «وأما ذمي لذلك البلد وأهله إنّما كان نفثة مصدور اقتضاها ذلك الحادث المذكور، وإلاّ فالبلد وأهله بالمدح أولى، وبالتقريظ أحقُّ وأحرى»[٣١].

٣. أَصفهان (أصبهان):

مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وقيل اسم للإقليم بأسره، كانت مدينتها أولا جيّا ثم صارت اليهودية.[٣٢] وهي اليوم مدينة في جمهورية إيران الإسلامية. وقد هجاها كثير من الشعراء، وممّن هجاها من شعراء عصر حروب الفرنجة الشاعر عبد الرحيم بن أحمد الشيباني المتوفى سنة ٦٠٥ أو ١٢٠٨/٦٠٦ أو ١٢٠٩، قال[٣٣]:

ما أصفهانُ لمن ألمَّ بها ... وطنٌ يعيشُ به، ولا بلدُ
إرمٌ.. ولكنْ ما بها أرمٌ ... حدٌّ.. ولكنْ ما بها أحَدُ
ما شئتَ من نعمٍ لدى نعمٍ ... لا الصَّفْدُ يثنيهم ولا الصَّفَدُ

فالشاعر هنا يذم اصفهان جرّاء ما لقيه فيها، فيقول: إنها لا تصلح لأن تتخذ موطناً، وهي مثل إرم ذات العماد لكن لا شيء فيها يؤكل أو يعضُّ عليه (يتمسك به) وهي تصرف أهلها عن فعل الخير، فلا تجد أحداً فيها يُعاشر، وهي مليئة بالخيرات لكنّ أهلها لا يردعهم القيد ولا العطاء.

٤. بخارى:

من أعظم مدن ما وراء النهر، وأجلّها، وهي قديمة كثيرة البساتين، وقد هجاها شعراء كثر، وكرهوا المقام بها، واستخدموا تصحيف اسمها في هجائها.[٣٤] وممن هجاها في عصر حروب الفرنجة الشاعر ابن عنين محمد بن نصر الأنصاري المتوفى سنة ١٢٣٤/٦٣٠، فقال:[٣٥]

آليتُ لا آتي بُخارى بعدَها ... ولَوَ انَّها في الأرضِ دارُ خلودِ
فلقد حللتُ بها حنيفاً مسلماً ... ورحلتُ عنها باعتقادِ يهودي

فابن عنين بعد ما سكنها فترة، يأخذ على نفسه عهداً أن لا يعود إليها ثانية ولو كانت دار خلود، لأنّه حلّها مسلماً حنيفاً، ورحل عنها يعتقد باعتقاد اليهود، وذلك دليل على فساد معتقد أهلها. وقال:[٣٦]

لا رعى الله ليلتي في بُخارى ... ذكرُها ما حييتُ حشوَ ضميري
طرَقتني الضيوفُ فيها وقد بِـ ... ـتُّ من الجوعِ في عذاب السعيرِ
ليس في منزلي سوى قحف إبريـ ... ـقٍ وباقي قطيعةٍ من حصيرِ
أتقرَّى التجارَ في سائر الخا ... ناتِ ظُهراً عندَ استواءِ القدورِ
فإذا فاتني كريمٌ يُغَدّيـ ... ـني تعشّيتُ قُرْصةً من شعيرِ

فهو يذم ليلة قضاها في بخارى لا ينساها ما حيي، إذ جاءه ضيوف وهو يتعذّب من شدّة جوعه، ولا شيء في منزله سوى بعض ماء في إبريق، وقطعة حصير، وكان يطلب طعامه من تجار الخانات وقت الظهر، وإن لم يجد أحداً يطعمه طعام الغداء، فإنه يتعشى قرص شعير، وذلك ذم وتحقير لأهل بخارى بأنهم لا يكرمون الضيف، ولا يفتحون أبوابهم لاستقباله.

٥. بصرى الشام:

مدينة من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، ذكرها كثير من الشعراء في شعرهم[٣٧]. وقد هجاها الشاعر هبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨/١٢١٤، فقال:[٣٨]

أيا بَصَري لا تنظرَنَّ إلى بُصْرَى فإنّي أرى الأحبابَ في بلْدة أُخرى
وما بلدَةٌ لم يسكُنوها ببلدةٍ ولو أنّها بينَ السِّماكيْنِ والشِّعْرَى

فابن سناء الملك هجا بصرى الشام وسيلة للشوق إلى بلده مصر لا لأنها تستحقّ الهجاء، فهو عندما وصل بصرى الشام في طريقه إلى دمشق قادماً من موطنه مصر اشتاق لمصر وأهله فيها، فقلّل من مكانة بصرى لأنها ليست موطن أهله ومن يحبهم، وأيّ بلد لا يسكنه أهله ومن يحبهم لا قيمة لها في نظره، وإن كانت ذات مكانة عالية.

٦. بغداد

أُم الدنيا، وسيّدة البلاد، أول من مصّرها، وجعلها مدينة، الخليفة العباسي الثاني، المنصور بالله، أبو جعفر عبد الله بن محمد، انتقل إليها من الهاشمية التي اختطّها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة، فبدأ بناءها سنة ١٤٥/٧٦٢، وسكنها بعد أربع سنوات، وهي اليوم عاصمة الجمهورية العراقية، وقد أورد ياقوت الحموي اشعاراً كثيرة في مدحها وذمّها منذ أنشئت.[٣٩]

وقد هجا بغداد من شعراء فترة الدراسة عدد غير قليل من الشعراء بعضهم من أهلها، وبعضهم رحل إليها لغرض ما، وبعضهم ساقه إليها القدر ولم يفدوا إليها رغبة منهم، وممّن هجوا بغداد:

١ـ أبو الفتح محمد بن عبد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣/١١٨٧ وهو ولد في بغداد ونشأ بها، وقد هجاها، وهجا أهلها، وأهم المعاني التي هجاها بها هي:

أ. أنها بلد يعمّه الظلم، قال:[٤٠]

يا قاصداً بغدادَ جُزْ عن بلدةٍ للجورِ فيها زخرةٌ وعبابُ
إنْ كنتَ طالبَ حاجةٍ فارْجع فقد سُدَّت على الرّاجي بها الأبوابُ

فهو يحذر كلّ صاحب حاجة بأن لا يقصد بغداد لقضاء حاجته، وأن يجتازها إلى غيرها من البلدان، إذ الظلم والجور فيها عام كعباب البحر، وأبواب قضاء الحاجات مغلقة.

ب. تغير أحوال أهلها وأخلاقهم:

ويعزو سبب هذا الحال الذي تعيشه بغداد في عهده (أي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) إلى وزيرها الذي غيّر حالها وحال أهلها، فبعد أن كانت في العهود السابقة عامرة بالطلاب، ويفد إليها سادات الناس وعظماؤهم، أصبحت أحوال أهلها كأنّما هم في يوم القيامة لا أنساب بينهم، قال:[٤١]

ليست وما بَعُدَ الزمانُ كعهدها أيامَ يعمرُ ربْعَها الطُّلابُ
ويحلُّها السَّرواتُ من ساداتها والجلّةُ الرّؤساءُ والكتّابُ
والفضلُ في سوق الكرام يباعُ بالـ ـغالي من الأثمانِ والآدابُ
بادتْ وأهلُوها معاً فبيوتُهمْ ببقاءِ مولانا الوزيرِ خرَابُ
وارتهُمُ الأجداثُ أحياءً تُها لُ جنادلٌ من فوقها وتُرابُ
فهُمُ خلودٌ في محابسهِمْ يُصَبْـ ـبُ عليهمُ بعدَ العذابِ عذابُ
لا يُرتجى منها إيابهُمُ وهلْ يُرجى لسكّان القُبورِ إيابُ
والناسُ قد قامتْ قيامتُهُمْ ولا أنسابَ بينهُم ولا أسبابُ
والمرءُ يُسلمُهُ أبوهُ وعرسُهُ ويخونُهُ القُرباءُ والأصحابُ
لا شافعٌ تغني شفاعَتُهُ ولا جانٍ لهُ ممّا جناهُ مَتابُ
شَهِدوا معادَهُمُ فعادَ مصدّقاً منْ كان قبْلُ ببعثهِ يرتابُ
حشرٌ وميزانٌ وعرضُ جرائدٍ وصحائفٌ منشورةٌ وحسابُ
وبها زبانيةٌ تُبَثُّ على الورى وسَلاسِلٌ ومقامِعٌ وعذابُ
ما فاتَهُمْ من كُلِّ ما وُعِدوا بهِ في الحشرِ إلاّ راحمٌ وهّابُ

ج. موقف أهل بغداد منه:

وفي قصيدة ثانية يقرّع أهل بغداد في إعراضهم عنه، فيتساءل إن كانوا وهم المعروفون بالجود والكرم يقبلون بأن يرحل عن بلدهم، يجوب البلاد طلباً للعطاء، آملاً أن

يحرّك المجد البغدادي أحدهم فيمن عليه بعطايا يحوز بها شكره، ويستعبده، ويصلح أمره، مشيراً إلى أنّ أدبه بينهم أصبح عيباً كما يعاب الغلام الأمرد بين أترابه، ويرفض اعترافهم بشاعريته، ومدحهم المعنويّ له بأنّ شعره رقيق، وخاطره جيد، فهو ليس بحاجة للمديح المعنوي بل للمادي، قال:(٤٢)

أترضــونَ يــا أهلَ بغــداذَ لي　　　وعنكمْ حديثُ النّــدى يسندُ
بــأَنّي أرحــلُ عــن أَرْضِكُــمْ　　　أجــوبُ البــلادَ وأسترفِــدُ
ألا رجــلٌ منكُــمُ واحــدٌ　　　يُحركُــهُ المجــدُ والسُّــوددُ
يُقلــدُني منَّــةً يســترقُّ　　　بها حُــرَّ شُكــري ويستعبدُ
ويغضــبُ لي غضبــةً مــرّةً　　　يعــودُ بها المُصلــحَ المُفسدُ
لقــدْ شانَنــي أدبــي بينكــمْ　　　كما شــينَ باللّحيــةِ الأمردُ
أَمَــا ليَ مِنكُمْ سِــوى «شِعرُهُ　　　رقيــقٌ وخاطِــرُهُ جيّــدُ»

ثم يمضي في تشريح موقف أهل بغداد منه، وكأنه يفضحهم، ويصرّح لهم بما يريد، فيقول: إنهم يسرّون بغناء شعره، ويطربون لانشاده، لكنه لا يريد ذلك فحسب بل يريد رغيف خبزه الذي هو عنده أفضل من مديح شعره. وأنهم لا يدعونه يرِدُ الخيرَ الذي يردونه، وهم يبعدون خيرهم عنه، ولا يفعلون ذلك في شرهم. ويحضر يوم خوفهم وحربهم، ولا يعطونه فيأه، ويمدحهم فلا يثيبونه، ويعمل معروفه فيهم فلا يحصد ثمره، ويبيع مديحه وكتبه من أجلهم ولا يمدون أيديهم إليه. والدهر يظلمه بحوادثه كما المِبْرَدُ فلا يعينه أحد. قال:(٤٣)

يسُرّكــمُ أن يُغنّــى بــهِ　　　ويُطربكُــمْ أنّــهُ يُنشَــدُ
وأُقســمُ أنَّ رغيفــاً لــديَّ　　　مــنْ قولكُــم جيــداً جيــدُ
أرى البحــرَ مُعترضــاً دونكمْ　　　ومــا لي علــى سيفِــهِ مَــوْردُ
ويبعــدُ خيركُــمُ إنْ دنــوتُ　　　عنّــي والشّــرُّ لا يبعــدُ
وأشهدُ في الــروع يومَ اللقاءِ　　　وإنْ قُســمَ الفــيءُ لا أشهــدُ
وأغرسُــ مدحي فــلا أجتني　　　وأزرعُ شُكــري ولا أحصــدُ
أبيــعُ ثنائــي وكُتبــي ولا　　　يَمُــدُّ إليَّ برفــدٍ يَــدُ
ويوسعنــي الدَّهــرُ ظلماً ولا　　　أُعــانُ عليــه ولا أُنجــدُ
زمــانٌ يحنّقُنــي صَرفُــهُ　　　كأنَّ حوادثَــهُ مِــبْرَدُ

ثم يستحثهم على اسعافه مهدّداً إيّاهم بالرحيل عن بلدهم إلى بلد يجد مكانه الذي يليق به فيها. موضحاً الحياة التي يرغب فيها والمكانة التي يسعى إليها.

د. ذم بغداد والدعاء عليها:

وبعد ذلك ينتقل إلى ذمّ بغداد، فيدعو الله أن يبيد بغداد موطناً لأنّه لا مكان للمكرمات فيه، فحياته لم تكن منعمه، وزمانه ليس ناعماً ورقيقاً، ونسيم المحبين فيها بارد، وسوق الشعر هابط، وعلى الرغم من أن أخلاق سكانها صافية إلاّ أنهم بخلاء، فأيديهم مقبوضة، والجود فيهم معبس، وسحبه لا تمطر، ونيران الظلم لا تخمد، ويسمو فيها سفلة الناس باستمرار، ولا مكان فيها للسؤدد والأصل والنسب، قال:(٤٤)

لحـا اللهُ بغـداذَ مـنْ موطنٍ ... بـه كل مكرُمـةٍ تفقـدُ
هيَ الـدارُ لا ظـلُّ عيشي بها ... ظليـلٌ ولا زمنـي أَغْيَـدُ
نسيـمُ الهـواء بهـا بـاردٌ ... وسـوقُ القريضِ بهـا أبْـرَدُ
وأخـلاقُ سكانهـا كالـزُّلالِ ... ولكـنَّ أيديهـم جلمَـدُ
فكـفُّ العـوارفِ مقبوضةُ الـ ... ـبنـانِ ووجـهُ النّـدى أرْبـدُ
وسحـبُ المـكارم لا تستهـلُّ ... ونـارُ المظـالم لا تخمـدُ
يُـرى كلَّ يـوم بهـا سِفْلـةٌ ... يسـودُ ولمْ يَنْمِـه سُـودَدُ
يُناضـلُ مـنْ دونـه وفـرُهُ ... ويخذُلُـهُ الأصـلُ والمحتـدُ
ويُعجبُـهُ طيـبُ أثوابـهِ ... وقـد خبُـثَ الأصـلُ والمولدُ

هـ. حاله في بغداد:

وبعد ذلك يصل إلى القول بأنّ مقامه في بغداد كمقام الحجر الأسود عند القرمطي عندما اختطفه، وكأنه المريض مرضاً مزمناً أقعده عن الرحيل إلى غيرها، قال:(٤٥)

حللـتُ بهـا كارهـاً لا أحُلُّ ... إذا النـاسُ حلّـوا ولا أعقُـدُ
كما حلّ في قبضـةِ القرمطيّ ... تحيّاتـهِ الحجـرُ الأسـودُ
كأنّي لمـا لزمـتُ الجلوسَ ... بأكنافهـا زَمِـنٌ مقعـدُ

و. ذمّ بغداد ببردها، وبخل أهلها:

و سبط ابن التعاويذي لا يملّ شتيمة أهل بغداد، وذمّهم، ففي قصيدة كتبها إلى عماد الدين محمد بن حامد يمدحه، ويستهديه فروة دمشقيّة، يقول:(٤٦)

إنَّ بغداذَ الّتي للـ بخلِ أمستْ دارَ دعوهْ
وبنوها فهُمُ أكـ ـثرُ أهلِ الأرضِ جفوهْ
قد أقامَ الثَّلجُ فيها شتوةً منْ بعدِ شتوهْ
فهو يغزونا مساءً في نواحيها وغدوَهْ
مثلَ ما يُتْبِعُ نورُ الدْ ينِ في الأعداءِ غَزْوهْ
فَافْرِ عنْ جسمي أذاهُ يا أخا الجُودِ بفروهُ
فروةً تصلحُ أن يهد يَها مِثْلُكَ كُسْوهْ
فَفِرا جلّقَ عند النّاس في بغداد شَهوهْ

فهو كأنّما اتخذ مهاجمة أهل بغداد وسيلة لاستجداء الفروة، فبغداد دار الدعوة للبخل، وأَهلها أكثر الناس جفاء، وهو يقاسي من البرد، معاناة الفرنجة من غزوات نور الدين زنكي، وهو يريد بذلك من ممدوحه أن يشفي جسمه من معاناته بهذه الفروة.

ويلحّ الشاعر على فضح ظلم أهل بغداد له، وعدم تقديرهم لشاعريته ومكانته، فهو فيهم كالمسجد المهجور في حي الكرخ، وعلى الرغم من ظمئه لعطاياهم إلا أنّهم يمنعونها عنه، ويهدون لغيره الثياب والدنانير، قال:(٤٧)

يا أهلَ بغداذَ مالي بينَ أظهُرِكُمْ كأنّني مسجدٌ بالكرْخِ مهجورُ
مُخَلّأً عن عطاياكُمْ على ظمأ تُهدى الثيابُ لغيري والدّنانيرُ

ز. هجاء أهل بغداد بالجهل، والبخل، وسيلة لمدح ممدوحه:

ولشعوره العميق بظلم أهلها له، جعل هجاءها، وأهلها وسيلة لاسترفادِ مبعوث نور الدين زنكي إليها، قال:(٤٨)

حللتَ حُلول الغيثِ في البلدِ المحْلِ وإن جلَّ ما تولي يداكَ عن المثلِ
وفارقتَ أرضَ الشأم لا عن مَلامةٍ ولا أنّ فيها عن فراقِكَ ما يُسْلي
ولكن ليستشفي البلادَ وأهلها بفضلك من داء الجهالة والبخلِ

فبغداد بلد ممحل لا خير فيه، جاءها مبعوث نور الدين ليشفيها، وأهلها من أمراضها ممثلة في الجهل والبخل.

٢ـ ابن عنين، محمد بن نصر الأنصاري المتوفى سنة ٦٣٠/١٢٣٢، قال:(٤٩)

سأرحلُ عن بغداد في طلب العلا إلى بلدة يحنو عليَّ أَميرُها
إلى بلدةٍ فيها الكلابُ تَخالُها نموراً وما رُدّتْ إليها أمورها

فابن عنين مكث في بغداد مدّة، فلم يحصل على مبتغاه من حكامها، لا في المال ولا في المكانة العالية في المجتمع، ولمّا لم يقدّره أهلها، وحكامها، فإنه يعلن عزمه على الرحيل إلى بلدة أخرى يجد فيها مبتغاه.

٧. جُرجان:

مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة[٥٠]. وقد ذمَّ أكثر من شاعر هواء المدينة، ومناخها بشكل عام، قال كافي الكفاة محمد بن الحسن المتوفى ٥٦٢/١١٦٧ في هجائها:[٥١]

نحنُ واللهِ من هوائك، يا جُر جانُ، في خطّة، وكرب شديد
حرُّها ينضجُ الجلودَ، فإن هَبْـ بَتْ شمالاً تكدّرتْ بركودِ
كحبيبٍ منافقٍ، كلّما همَّ بوصلٍ أحالَهُ بالصُّدُودِ

فهو يذم جرجان بأنها أرض لا يصيبها المطر، فتصيب سكانها بكرب، وهم شديد جرّاء حرّها الذي ينضج جلودهم، وإذا ما هبَّت عليها ريح شمال سرعان ما تركد. فحالها بذلك حال المنافق من المحبين.

٨. حـرّان:

مدينة مشهورة من جزيرة أقور، قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم[٥٢]. هجاها الشاعر علي بن محمد بن الحسن المعروف بابن النبيه المصري المتوفى سنة ٦١٩/١٢٢٢، وذلك عندما مرّ مع الملك الأشرف ابن العادل بن أيوب، في يوم شديد الحرّ على مقابر بظاهر حرّان، فكان لها أهداف طوال على حجارة كأنّها الرجال القيام، فسأله الملك الأشرف: بأيِّ شيء تشبهها؟، فقال:[٥٣]

هواءُ حرّانكم غليظ مكدّرٌ مُفرط الحرارَهْ
كأنّ أجداثها جحيم وقودها الناسُ والحجارهْ

فابن النبيه الشاعر هجا حرّان بمناخها الحار جداً، حتى كأنّها تحّول قبور أهلها بما عليها من حجارة واقفة وتحتها من جثث جهنم تستعر، وما يزيد استعارها هو الجثث وحجارة القبور.

٩. حصن الطّوبان:

وهو من أعمال حمص أو حماة[٥٤]، قال أسامة بن منقذ الأمير الشاعر المتوفى سنة ٥٨٤/١١٨٨، يهجو الحصن وأهله على سبيل الدعابة القاسية والساخرة:[٥٥]

متى أرى الطوبانَ قد مَهَّدت حيطانَهُ السُّودَ المحاريثُ
ما فيهِ إلاّ ريحُ عادٍ، وأجـ ـلافٌ طَغامٌ وبراغيثُ

فهو يدعو على الحصن أن تهدم حيطانه السوداء، وتحرثها المحاريث، لأنّه لا يضم إلاّ ريح عاد، وأوغاد الناس، والبراغيث.

١٠. حلب:

وهي مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، طيبة الهواء، صحيحة الأديم والماء، وكانت أيام ياقوت الحموي قصبة جند قنّسرين(٥٦). وهي اليوم ثاني أكبر المدن في الجمهورية العربية السورية. وقد هجاها الشاعر أبو المحاسن محمد بن نصر الأنصاري المشهور بابن عنين والمتوفى سنة ٦٣٠/١٢٣٢، فقال:(٥٧)

لا عادَ في حلبٍ زمانٌ مرَّ لي ما الصبحُ فيه من المساء بأَمْثَلِ
سِيّانِ في عرصاتها رأدُ الضّحى عندي ودَ يْجورُ الظّلام المُسْبَلِ
في معشرٍ لعنوا عتيقاً لا سُقُوا صوبَ الغمام ومعشرٍ لعنوا علي
قومٌ عهودُ رجالهم محلولةٌ أبداً وعهدُ نسائهم لم يُحْلَلِ
مِنْ كلِّ مائسة القوامِ رشيقةٍ رُودِ الشبابِ كَدُميةٍ في هيكلِ
خطيّة الخطواتِ يثني قدَّها مَرحٌ فيهزأ بالوشيجِ الذُبَّلِ
وإذا علاها راكبٌ رقصتْ به رقصَ القلوصِ براكبٍ مستعجلِ
ومقطّع الأَرماجِ ليس لدائه راقٍ وأعيا الداءَ داءُ الأَسْفلِ
ما زال ينتفُ شعرَ خدّيه إلى أنْ أصبحتْ وجناتُهُ كالمنْخُلِ
ولسوفَ أُعربُ عن غريب صفاتهم مستأنفاً ما فات في المستقبلِ

فهو يهجو حلب وأهلها من خلال تجربته الشخصية، وسبب الهجاء شخصي هو عدم اهتمامهم به، وسوء حاله في حلب، فيدعو بأن لا يعود الزمن الذي قضاه في حلب، حيث تساوى فيه الصباح والمساء، كما تساوى في ساحاتها رونق الضحى وانبساطه مع شدّة الظلام، وانقسم أهلها بين شيعة يلعنونَ الصدّيق فلا يستحقون الرحمة، وقسم يلعنونَ عليّاً، وهم كلهم لا يحفظون عهداً، فيما عهود نسائهم في السوء لا تُنقض، فهنَّ عاهرات أُصبنَ ومن يضاجعن بالداء في أسافلهم حيث لا شفاء. والقوادون أيضاً أو ربما اللوطيون يزيِّنون أنفسهم. وبعد هذا الهجاء الذي يرتقي إلى ذكر الصفات الفاضحة المخجلة والمخزية يتوعّد أهل حلب بمزيد من الفضح في المستقبل.

١١. حمـاة:

مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة، حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، وفيها جامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي، وعليه نواعير تستقي الماء منه فتسقي بساتينها، وتصب إلى بركة جامعها[٥٨]

وقد استخدم الشاعر عبد الرحمن بن أبي القاسم العسقلاني المعروف بابن المسجِّف العسقلاني المتوفى سنة ١٢٣٧/٦٣٥ طبيعة المدينة؛ نهرها العاصي، وقرونها (جبالها) وسيلة للهجاء، قال في هجاء صاحبها الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر المتوفى سنة ١٢٢٠/٦١٧:[٥٩]

ما كان يصلــح أن يكون محمدٌ ... بســوى حمــاة، لقلّــة في دينه
قد أشبهت منه الصفات: فنهرها ... مــن جنســه، وقرونهــا كقرونه

فأهلها عرفوا بقلة الدين لذلك لا يصلح مهجوه حاكماً إلا لها، وهو عاص كنهرها العاصي، وله قرون كقرون حماة، وهي قلّتان متقابلتان تشكلان جبلاً يشرف عليها وعلى نهرها العاصي.

وهجاها **أمين الدين الحلبي، عبد المحسن بن حمود** المتوفى سنة ١٢٤٥/٦٤٣، وكان كاتباً ووزيراً لعز الدين أيبك صاحب صرخد، فقال:[٦٠]

عــمَّ البِغَــا حَمُــو حمَــاةَ فمُرْدُها ... ونساؤُهــا ورجالهــنَّ جمَيْعَــا
شِبْــهَ النَّواعــير التــي يَهْدُونَهــا ... مِــنْ مَسِّهِ العاصــي يَــدُورُ مُطيْعَا

فأمين الدين هنا هجا حماة، وأهلها بالبغاء والمعصية التي اكتسبوها من نهر العاصي الذي يمرّ ببلدهم حماة.

١٢. دمشق:

قصبة الشام، وهي جنة الأرض بلا خوف لحسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة بقعة، وكثرة مياه[٦١]. وهي اليوم عاصمة الجمهورية العربية السورية. مدحها كثير من الشعراء على مرّ العصور، وذمّها وأهلها عدد قليل، ومن خلال تتبعي لما قيل في هجائها يمكن إيراد ما قيل في هجائها من اشعار وفق الآتي:

١- **أحمد بن مفلح الطرابلسي**، المعروف بابن منير الطرابلسي المتوفى سنة ١١٥٣/٥٤٨، هجاها ضمن قصيدة قالها للشريف المرتضى الموسوي انتقد فيها الشيعة، وذكر حياته في دمشق مع أهل السنة حيث هجاهم وهجا مدينتهم دمشق، فقال:[٦٢]

وأعنتُ ضلالَ الشآ ... م على الضلال المشتهرْ
وأطعتهم وطعنت في الـ ... خَبر المُعَنَّعنِ والأثرْ
وسكنتُ جلّق واقتديـ ... ـتُ بهم وإنْ كانوا بقرْ
وهواؤُهم كهوائهم ... وخَليْطُ مَائهم القذرْ
وعَليمُهم مُسْتَجْهلٌ ... وأخُو الديانة مُحْتَقَرْ
بقرٌ تَرى برئيسهم ... طيْشَ الظَّليم إذا نفَرْ
وخفيْفُهم مُسْتَثْقَلٌ ... وصَوابُ قولهَمْ هَذَرْ
وطباعُهم كجبالهم ... طُبِعَتْ وقُدَّتْ مِنْ حَجَرْ

فابن منير يصف أهل الشام بالضلال، وانكار الأخبار والأحاديث الصحيحة، فهم بقر، وهوى مدينتهم فاسد، وحياتهم قذرة، والعالم فيهم منكر، وذو الدين محتقر، ورئيسهم طائش غير حكيم،وأقوالهم كالهذر لا فائدة منها، وطباعهم قاسية كجبال بلادهم.

٢- **الحسن بن صافي** الملقب بملك النحاة المتوفى سنة ١١٧٣/٥٦٨، هجا دمشق، وأهلها لأنه لم يجد فيها المكانة والتقدير اللذين كان يسعى إليهما، فقال:[٦٣]

لأرحلنَّ مطيّتي عن بلدة ... شعثاء يكرَهُ ماؤُها وهواؤُها
ولأرمينَّ دمشقَ غير مُحجّفً ... بفواقر الْتبَسَتْ لَها أبناؤُها
ولأزجرنّ العيسَ عنها مُعْرضاً ... إنْ أقْدَرتني دَوْلةٌ ولواؤُها
فإلامَ أُغضي في دمشقَ على قَذًى ... والأرضُ نازحةٌ بها أرجاؤُها

فالشاعر عزم على الرحيل من دمشق مكروهة الماء والهواء، ويتهدّدها بأن يرميها بدواه، ومصائب تحار منها أبناؤها، مؤكداً أنه سيعرض عنها، ولن يستمرّ في تحمل الأذى فيها، فأرض الله واسعة.

٣- **أبو الحسن، علي بن رستم بن هردوز**، المعروف بابن الساعاتي المتوفى سنة ١٢٠٧/٦٠٤، ذمّ حاله في دمشق؛ مسقط رأسه وموطنه، الذي لم يجد فيه ما كان يأمله من حياة هانئة مستقرّة، وأكد أنه ما هجر دمشق إلاّ سعياً للعيش الكريم، لا بحثاً عن بديل لها من الأوطان، لكنّه أشار إلى أنه لم يحصّل العلا فيها، ولذلك فلا بد له أن ينتقل في بلاد الله شأنه في ذلك شأن أصحاب الفضل، حيث سيجد مكانته تماماً كالدّرّ لا تظهر قيمته إلا بعد خروجه من الصدف، قال:[٦٤]

ما سرتُ عن جلّق أَبْغي البديلَ بها ... لولا طلابي محلاًّ للعُلا قَذْفا
طولُ المقام لأهْل الفَضْلِ مَنْقَصَةٌ ... والمسْكُ لولا النَّوى ما أدْركَ الشَّرَفا
لَوْ لمْ تُجرَّدْ سيوفُ الهندِ ما رُهبَتْ ... والدُّرُّ ما جلّ حتى فارَقَ الصَّدَفا

وفي أبيات أخرى ظهر طموحه، وتطلّعه إلى المسجد، والثّراء بحيث لاحت في معانيه روح المتنبي(٦٥)، وطموحه وفخره بأدبه، ونفسه، واعتزازه بهما، وأنه هو الذي يشرّف البلد الذي يتوطنه لا العكس، قال:(٦٦)

فإنْ بلـــدٌ لم أغدُ فيـــه مكرَّما نَهضـــتُ فأعلمتُ الجديليّـــة البُدْنا
فإنّي كعـــودِ الهنْدِ هيْنَ بِدَوْحِه وقَدْ عبّقتْ أنفاسُـــهُ السَّهل والحزَنا

٤- هبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ١٢١٤/٦٠٨، كان شاعراً كثير الهجاء حتى أنه هجا أهله، وذمّ الزمان والدنيا، وفي قصيدة رائية له، ذكر أهله، ووطنه وهو في دمشق، ثم ختمها بذمّ دمشق وأهلها، فقال:(٦٧)

دمشقُ قـــبرُ الدّينِ كَـــمْ منكَرٍ فيهـــا ولكِـــنْ مـــا عليـــه نكـــيرُ

فدمشق عنده لا دين فيها؛ إذ هي مليئة بالمنكرات، ولا أحد من أهلها ينكرها أو ينهى عنها.

٥- يحيى بن مطروح، جمال الدين، المتوفى سنة ١٢٥١/٦٤٩، شعره في الهجاء أغلبه مقطعات، وقد عثرت على نتفتين له في ذم دمشق وهجائها، قال في الأولى عندما أمر بالسفر من دمشق:(٦٨)

يقولون: سافر مـــن دمشق ولا تَقُمْ وذاك أمـــرٌ مـــا علـــيَّ بـــه بأسُـــ
فقلتُ: علـــى عَيْني وسَمْعاً وطاعةً فمـــا جلّقُ الدُّنيـــا، ولا أنْتُـــمُ النّاسُ

فابن مطروح في هذه النتفة يرى أنه إن غادر دمشق لن يخسر شيئاً كثيراً، فليست هي الدنيا التي يرغبها البشر، وليس أهلها الناس الذين يأنس بهم، ويرتاح فيهم.

أما الثانية فهجا فيها أهل دمشق بعد ما قام بينهم زمناً خبرهم فيه جيداً، فوصفهم بأنّهم كاليهود اتخذوا السبت عيداً لهم، ويشربون ماءهم من نهر يزيد المنتسب إلى يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، المتهم بشرب الخمر، قال:(٦٩)

تَخـــذْتُم السَّبْـــتَ يـــومَ عيْـــد وهَـــذه سُنَّـــةُ اليهـــودِ
وكَانَ يكفيكُـــم ضـــلالاً شُرْبُكَـــم المـــاءَ مِـــنْ يزيْـــدِ

١٣. دُنَيسر:

بلدة عَظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين(٧٠)، قال محمد بن جعفر المنقوشيّ المتوفى سنة ١٢٢٥/٦٢٢، يهجو رجلاً من أهلها اسمه مقبل:(٧١)

عجبتُ لمن سمّى اللئيمَ ابنَ مُقبلٍ ومـــا هـــو إلا مُدْبـــرٌ وابـــنُ مُدْبرِ
ولو لم يكن من عتْرَةِ اللؤم والخنا كفتـــه المخـــازي أنّه مـــن دَنيْسرِ

هنا الشاعر هجا مقبلاً بأنه مدبر وابن مدبر، وأصله لئيم ضعيف، وفوق ذلك أنه من أهل دنيسر ما يزيد في هجائه. وكأنّ دنيسر لا يسكنها إلا أمثاله.

١٤. دهلك:

وهي جزيرة في بحر اليمن، ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة، بلدة ضيقة حرجة حارة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها[٧٢]. وقد ركب الشاعر نصر **الله** بن عبد **الله** بن قلاقس الاسكندري الملقب بالقاضي الأعز المتوفى سنة **٥٦٧/١١٧١** البحر وفي أثناء ركوبه البحر غرق مركبه عند جزيرة الناموس قرب دهلك، وعانى معاناة شديدة قبل أن يخرج سالماً، فقال يهجو دهلك، وحاكمها مالك بن الشدّاد:[٧٣]

وأقبحْ بدَهْلكَ منْ بلدةٍ فكلُّ امرئٍ حلَّها هالكُ
كفاكَ دليلاً على أنّها جحيمٌ وخازنُها مالكُ

١٥. زبيد:

مدينة مشهورة باليمن، أُحدثت في أيام الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد[٧٤]، هجاها الشاعر المبارك بن كامل بن علي بن منقذ الكنانيّ، سيف الدولة المتوفى سنة **٥٨٩/١١٩٣**، وذلك أنه كان في مصر، ومن المقرّبين من الملك المعظم توران شاه بن أيوب أخي صلاح الدين الأيوبي حاكم اليمن، الذي عاد إلى مصر سنة **٥٧١/١١٧٥**، واستناب على اليمن عدداً من النواب، منهم المبارك بن منقذ؛ إذ ولاّه حكم زبيد، وأعمالها، وجميع تهامه، فأحسَّ بفرق الحياة والمعيشة بين مصر وزبيد في جوانب عديدة، فقال نفثة مصدور معبّراً عن عدم رضاه عن هذه الوظيفة التي أسندت إليه، قال:[٧٥]

وإذا أرادَ اللهُ شرّاً بامرئٍ وأرادَ أنْ يُحْيِيهِ غيرَ سعيدِ
أغراهُ بالترِّحالِ عنْ مصر بلاً سببٍ وسكّنهُ بأرضِ زبيدِ

فالمبارك هنا اعتبر السكنى بأرض زبيد بعد مصر عقاباً من **الله** جلّت قدرته، وحكم عليه بالتعاسة في حياته.

١٦. سنجار:

مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، في وسطها نهر جار، وهي في لحف جبل عال[٧٦]. وقد هجاها بكر بن حبيب بن عمرو الحمداني، المتوفى سنة **٦٠٢/١٢٠٥**، وكان شاعراً مبسوط اللسان هجاءً، فقال[٧٧]:

متى أرى سنجارَ قد زُلْزِلتْ ومالَ أعلاها على الأَسْفلِ
وتصبحُ النّسوانُ من أهلها حواسراً في سِكَكِ الموصلِ
قدْ ملّت الأنفسُ من دولةٍ تُسَاسُ بالأرذلِ فالأرذلِ

١٧. نيسابور:

مدينة عظيمة ذات فضائل، قال ياقوت الحموي إنّه لم ير مدينة مثلها فيما طوّف من البلدان[٧٨].

وقد هجاها علي بن أبي زيد، أبو الحسن الاسترابادي المتوفى سنة ٥١٦/١١٢٢، فقال:[٧٩]

لا قدّسَ الله نيسابورَ مِنْ بلدٍ   سوق النّفاق بمغنَاها على ساقِ
يموتُ فيها الفتَى جُوعاً وبرُّهمُ   والفضلُ ما شئتَ من خيرٍ وأرزاقِ

فالاسترابادي يدعو على نيسابور بعدم المباركة من الله، ويقول إنها سوق للنفاق، وأهلها بخلاء على الرغم من غناهم حتى أنّ من ينزلها يموت جوعاً.

كما هجاها علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١/١١٧٥، فقال:[٨٠]

لا قدّسَ اللهُ نيسابورَ مِنْ بلدٍ   ما فيه منْ صاحبٍ يُسلي ولا سَكَنِ
لَوْلا الجحيمُ الذي في القلبِ من حُرَقٍ   لفرقةِ الأهلِ والأحبابِ والوَطَنِ
لمتُّ من شدّةِ البردِ الذي ظهرَتْ   آثارُ شِدَّتهِ في ظاهرِ البَدَنِ

فابن عساكر هنا يدعو أيضاً بأن لا يبارك الله نيسابور، ويصرّح بأنه لا يوجد فيها ما يسلي الإنسان؛ لا صديق ولا سكن، وأنه كاد يموت من شدّة بردها الذي ظهرت آثاره على بدنه لولا ما يختزنه قلبه من حرقة على فراق أهله، وأحبابه، ووطنه.

ثانياً ـ هجاء الأقاليم:

هجا عدد من الشعراء في عصر حروب الفرنجة أقاليم وبلداناً كاملة، وأهم الأقاليم التي تمكنت من العثور على هجاء لها لعدد من الشعراء، أربعة أقاليم، وقد درستها مرتبة على حروف الهجاء، وفق الآتي:

١. بلاد الشام:

على الرغم مما مدحت به بلاد الشام من شعر على مدى العصور، وعلى الرغم من وجود مقدّسات كثيرة فيها، ومن كتابة كثير من الكتب في فضائلها، وفضائل عدد من مدنها ومنها: بيت المقدس، والخليل، ودمشق، وعسقلان، وغزة وغيرها كثير، إلا أن بعض الشعراء رأوا في مرحلة ما لا بل في لحظة ما، وتعبيراً عن حالة نفسية وشخصية غير ذلك، فهجوا الشام لأمور شخصية خاصة بهم، ومن أهم من هجا الشام، الشاعر والوزير أبو الغارات الملك الصالح طلائع بن رزيك المتوفى سنة ٥٥٦/١١٦١، قال:[٨١]

كَره الشامَ أهلُهُ فهو محقو ... قٌ بألاّ يقيمَ فيه لبيبُ
إنْ تجلّت عنه الحروبُ قليلاً ... خلّفتها زلازلٌ وخطوبُ
رقصتْ أرضُها عشيّة غنّى الر ... عدُ في الجو، والكريمُ طروبُ
وتثنّت حيطانُه فأمالتـ ... ـها شمالٌ بزمْرِها، وجنوبُ
لا هبوبَ لنائم من أمانيـ ... ـه وللعاصفاتِ فيها هبوبُ
وأرى البرقَ شامتاً ضاحكَ السنِّ ... وللجوِّ بالغيوم قُطوبُ
ذكروا أنه تذوبُ به السُحـ ... ـبُ فما للصُّخور أيضاً تذوبُ
أَبِذَنْبِ أصابَها قدَّرَ اللـ ... ـهُ فللأَرْضِ كالأنام ذُنوبُ

فابن زريك يبيّن أنّ أهل الشام كرهوها، وهم محقّون في ذلك إذ لا عاقل يقيم فيها؛ ذلك أنّها دائمة المكاره فإذا ما هدأت الحروب، حلّت الزلازل والمصائب، وأرضها دائمة التراقص جراء الزلازل، وهي زلازل كارثية الآثار، فضلاً عن أن ريحها عواصف مدمّرة، وبرقها لشدّته يذيب صخرها، وهي بالإجمال بلاد كأنّما **الله** سبحانه وتعالى قدّر عقابها بالذنوب التي تقترفها، فجعلها تقترف الذنوب كما يقترفها البشر.

وهجاها الشاعر هبة **الله** بن جعفر المعروف بابن سناء الملك الشاعر المصري المتوفى سنة ٦٠٨/١٢١٤، عندما مكث فيها فترة من الزمن فحنّ إلى وطنه مصر، قال:[٨٢]

أَأَهْبطُ من مصْرٍ وقدْماً قد اشْتهى ... على الله أَقوامٌ فقالَ: اهبطُوا مصْرا
فكم لي بها دينارُ وجهٍ تركتُهُ ... ورائـي فعيْني بعدَه تشْتكي الفَقرا
فَو الله ما أَشْتـري الشآمَ وملكَهُ ... وغوطته الخضرا بِشبرينِ من شُبْرا

في هذه الأبيات واضح أن الحنين والشوق إلى أرض مصر قد ملكَ قلب الشاعر وعقله بحيث جعله يستشهد على حبه لها بما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: (**اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**)[٨٣]. وبجمال أهلها الذين تشبه وجوههم الدنانير، يشتاق لرؤيتها في الشام، حتى أنّه أقسم بأنه لا يشتري الشام، وملكه بما فيه الغوطة الخضراء بشبر من أرض شُبْرا بالقاهرة.

٢. العراق:

هجا عدد من الشعراء العراق، وأهله جرّاء عوامل شخصيّة، فكما هجوا بغداد هجوا العراق بكساد بضاعتهم الشعرية فيه، إذ لم يحصلوا على ما كانوا يأملونه من عطايا أو مكانة اجتماعية، وسياسية، وثقافية، كما أن بعضهم هجوه لأسباب أخرى. وممّن استطعت الوقوف على أشعار لهم في هجاء العراق شاعران، هما:

أ. **محمد بن عبيد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي** المتوفى في سنة ١١٨٨/٥٨٤، وهو من أهل العراق، وذم العراق وعاصمته بغداد كثيراً، ومما قاله في هجاء العراق:[٨٤]

لَحا اللهُ ليلاً في العراقِ سَهرتُهُ   أُنقِّحُ في مدحِ اللئامِ القَصائدا
وأَنسجُ مِنْ وشْيِ القَوافي حبائراً   وأُخرِجُ من نظمِ المعَالي فَرائدا
فلما نضا عنّيَ الظّلامُ رداءَهُ   تيمّمتُ سوقاً للمدائحِ كاسِدا

فسبط ابن التعاويذي هنا يدعو على العراق والوقت الذي أمضاه فيه يحبّر القصائد وينسجها ليزيّن بها ممدوحيه اللئام، ولما أنشدهم تلك القصائد المنقحة، والموشاة لم يجد ما كان يطمح إليه من عطايا.

ب. **محمد بن نصر الله الأنصاري** المعروف بابن عنين المتوفى سنة ١٢٣٤/٦٣٢، قال:[٨٥]

حوَى قصبَ السَّبْقِ أَهْلُ العراقِ   وعطّرَ ذكرَهُم الأنديَهْ
وأيُّ خطيبٍ يُجاريهمُ   وقد خطَبَتْ فيهمُ الأَجديَهْ

فابن عنين هنا وعلى الرغم من اعترافه بحيازه أهل العراق قصب السبق في المعارف، وأن النوادي الأدبية تتعطّر بذكر شعرائهم وعلمائهم إلا أنّه يستنكر عليهم أنهم كانوا يسمحون لهذا الخطيب المدعو بالجدي بأن يخطب فيهم.

٣. ما وراء النهر:

يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، وهو من أنزه الأقاليم، وأخصبها، وأكثرها خيراً، وعلى الرغم من مدح ياقوت الحموي لها ولأهلها[٨٦]، إلا أن ابن عنين، محمد بن نصر الأنصاري المتوفى سنة ١٢٣٢/٦٣٠، وهو الشاعر المطرود من دمشق الباحث عن مكان يناسب طموحه وآماله، لم يطب له المقام فيها، فقال يهجوها:[٨٧]

أَحنُّ ومن وراءِ النَّهرِ داري   حنينَ العُودِ أَوثَقَهُ العِراسُ
بأرضٍ لا الكلابُ بها كلابٌ   ولا الناسُ السُّراةُ هناكَ ناسُ
فكيفَ تبيتُ تطمعُ في مديحي   رجاءَ نَوالِها العجمُ الخساسُ
ولو أنّي مدحتُ ملوكَ قومي   تراغَتْ حوليَ النَّعَمُ الدِّحاسُ
فإنّ الناسَ في طُرقِ المعالي   لهم تبَعٌ، وهم للناسِ راسُ
ملوك دأْبُهم شرفٌ ومجدٌ   ودأبُ سِواهُم طَربٌ وكاسُ

فابن عنين في هذه الأبيات يحنُّ إلى موطنه دمشق، حنين الإبل المسن الموثق الرباط إلى ماضيه، وكأنه يسترجع في هذه البلاد ماضيه في دمشق، فيرى أنه ضلّ الطريق في مغادرة دمشق، وتطواف البلاد، فهو في بلاد العجم لا يرى أنه ينتمي إليها، ولا إلى أهلها

سواء أكانوا من أراذل الناس أم من سراتهم، ويصف أهلها بالخسّة، وأنه كان عليه أن يقف مديحه على ملوك وطنه بني أيوب.

٤. مصر:

كانت مصر في هذه الفترة مقرّ الخلفاء الفاطميين، ثم مقرّ حكم صلاح الدين الأيوبي، وبني أيوب من بعده، وكانت في أغلب الأوقات وافرة الخيرات، ومدحها كثير من الشعراء لما فيها من خيرات، ومنتزهات، ولما وجدوه لدى حكّامها من عناية بالشعراء، وإكرام لهم، لكنّ عدداً ممّن وفد على مصر من الشعراء، ولم يجدوا مبتغاهم سياسياً، واجتماعياً، ومادياً أو تعرض للسجن والإهمال، هجا مصر ببعض المقطعات الشعرية وممّن هجا مصر من شعراء عصر حروب الفرنجة:

أ- أمية بن عبد العزيز الأندلسي، أبو الصلت، المتوفى سنة ١١٣٥/٥٢٩، وهو شاعر أندلسي رحل إلى مصر، واستقّر بها عشرين سنة، سجن خلالها مدّة من الزمن بأمر الأمير الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي، قائد جيش الخليفة الفاطمي المستعلي بأمر الله، ثم نفي إلى الاسكندرية، ومنها خرج هارباً إلى القيروان، وجرّاء ما مرّ به من أحداث سيئة في مصر، قال في هجائها:[٨٨]

وكم تمنيتُ أنْ أَلقى بها أحداً ... يُسلي من الهمِّ أو يُعدي على النُّوبِ
فما وجدتُ سوى قومٍ إذا صَدَقوا ... كانت مَواعيدهم كالآلِ في الكَذِبِ

فأبو الصلت يشكو من معاملة أهل مصر له، فهو كثيراً ما تمنّى أن يلقى فيها مواطناً يساعده في إزالة همومه، أو في التغلب على مصائب الدهر، من غير جدوى، ولم يجد فيها سوى الكذابين وغير الصادقين في مواعيدهم، بل إن مواعيدهم كاذبة كالسّراب.

ب - محمد بن عبدوس الواسطي المتوفى سنة ١٢٠٤/٦٠١، وكان من الشعراء المجيدين، وقد انتقل إلى مصر وبها توفي، لكنّه أكثر من هجائها، وذمّ أهلها، وممّا هجاها به، قوله:[٨٩]

يا أهلَ مصرَ مدحتمْ ... مصراً بلا بُرْهانِ
وقلتمُ هيَ عينٌ ... نعَمْ بلا إنسانِ
أرضٌ عَدِمْنا لديها ... عوارفَ الإحسانِ
وكلَّ بِرٍّ تَراهُ ... فإنّهُ في اللّسانِ
يَوْمَ ارتحالي عنها ... جعلتُهُ مِهرجاني

فالواسطي القادم إلى مصر من العراق لم يجد في مصر ما كان يسمعه من مديح لها على لسان أهلها، لذلك جعل مديحهم أقوالاً تحتاج إلى إثبات، وهو حسبما عرف مصر، فإنّها عين عمياء، وأرض خالية من الإحسان والجود، وكلّ ما فيها هو كلام لا فعل، لذلك فإنه جعل يوم رحيله عنها يوم عيد ومِهرجان.

ج ـ **أبو الفضل جعفر بن الفضل بن زيد القرشي** الملقب بالمهذَّب شَلَعْلَعْ. هجا مصر والشام معاً ومدح العراق، فقال:[٩٠]

مــاذا حــواهُ الشــامُ مــن شاعــرٍ   تُجنــى إليــه ثمــراتُ العــراقِ
وشاعــرٌ في مصــرَ لم يستطــعْ   بــينَ بنيْهــا مضغــةً مــن عُــراقِ

فهو يهجو الشام ومصر، ويفضل عليها العراق، فالشام لا خيرَ فيها، وتعطي شعراءها من ثمار العراق، والثانية، لا يستطيع شعراؤها أن يحصلوا حتى على مضغة من عظم قد أُكلَ لحمه.

د- **محمد بن يوسف بن مسعود التلعفري** المتوفى سنة ١٢٧٦/٦٧٥، كان يلعب القمار، ولم يحالفه الحظ فطرده الملوك، والأعيان من مصر، فقال دوبيتا في هجائها:[٩١]

مَــالي وَلمِصْـرَ لا سقاهــا ربّــي   غيثــاً غَدقا مِــنْ سارِيــاتِ السُّحبِ
بالــرّوحِ دخلتُهــا وبالقَلْــبِ فَــلا   بالــرُّوحِ خَرَجْــتُ لا ولا بالقلــبِ

فالتلعفري يدعو على مصر بأن لا يسقيها الله الغيث، إذ دخلها وروحه، وقلبه في جسمه لكنّه خرج منها من دونهما، وذلك جرّاء عدم اهتمام أهلها به، وعدم اعطائه المكانة التي يرى أنه أهل لها.

هـ ـ **هجا مصر وثمرها الشاعر الأمير أسامة بن منقذ** المتوفى سنة ١١٨٨/٥٨٤، فقال:[٩٢]

رُمّــانُ مصــرَ كأنّــه ذُرَةٌ   آكلــهُ شاخِصٌ مــن الغُصَصِ
والرِّيــقُ فيهــا، فــدَعْ ســواهُ، إذا   أساغَــهُ المــرءُ كان بالنّغصِ
وليســ يرضَــى اللبيــبُ عيشَتَهُ   فيهــا، ولكــنْ زُريــقُ في القَفَصِ

فابن منقذ الذي لم يعتد الهجاء لمكانته العالية، وعلى الرغم من أنه وجد في مصر أول وصوله إليها سنة ١١٤٤/٥٣٩ كل ما كان يتمناه من رفعة ومال وجاه إلا أن الأزمات السياسية التي مرّت به في مصر كانت تملأ صدره بالهمّ، والنقمة على الزمن الذي دفع به إليها[٩٣]، ولعلّ هذه الأبيات كانت في لحظات امتلأ فيها صدره بالهمّ والحزن في مصر،

فرأى في رمانها سبباً للغصّة، والريق ينغص الحياة، لذلك فإن العاقل لا يقبل العيش فيها، لكن حاله حال الطائر في القفص فلا يستطيع مغادرتها إلا بإذن ولاة الأمور.

و- أبو الحسن علي بن رستم المعروف بابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٠٤/١٢٠٧، هجا مصر، فقال:[٩٤]

وها مصرَ لا يُقْضَى بها حَاجُ طالبِ بغاها، ولا يُمْضَى لذي أَمَلٍ حُكْمُ
لأبحرَ منها النيلُ وهو مُجاجَةٌ مِنَ البُخلِ، لا بل أظلمَ القمرُ التمُّ

فابن الساعاتي يهجو مصر لأنّ أهلها لم يقدّروه حقّ قدره، وقد بالغ في هجائه حتى جعله يشتمل على هجاء النيل الذي تفخر به مصر وبجوده عليها، فوصفه بالبخل.

ز- أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب، المتوفى سنة ٦٤٦/١٢٤٧، هجا مصر وأهلها لأنه لم يلق فيها ما كان يأمله من أهلها، فقال:[٩٥]

يا أهلَ مصر وجدتُ أيديكمْ في بذْلها بالسَّخاء مُنْقبضَهْ
لما عدمتُ القِرى بأَرْضِكمُ أكلتُ كُتْبي كأَنَّني أَرَضَهْ

فابن الحاجب في هذين البيتين يهجو أهل مصر بالبخل، إذ لم يجد في مصر من يحسن ضيافته حتى إنّه اضطر إلى بيع كتبه ليأكل بثمنها، وهو بذلك شبّه عمله بعمل الأرضة التي تأكل الكتب.

٥. الهند:

هجاها ابن عنين، محمد بن نصر الأنصاري المتوفى سنة ٦٣٠/١٢٣٢، وذلك أنّ صلاح الدين الأيوبي نفاه من دمشق، فطوّف بلاداً كثيرة منها الهند، ولم تطب له الحياة في أي من البلاد التي طوّفها، فهجا عدداً منها، وتشوّق كثيراً إلى دمشق، قال في هجاء الهند من قصيدة بعث بها إلى صديق له، كان اجتمع به في بلاد العجم[٩٦]:

يا أهلَ وُدّي بالشآم تحيّةً من نازح لم يبقَ فيه سوى ذَمَا
وإذا سقى اللهُ البلادَ فلا سَقَى بلدَ الهُنودِ سوَى الصَّواعقِ والدِّما
قد غيّرتْ غِيَرُ الليالي كلَّ حالاتي، وشَوقي والغَرامُ هُمَا هُمَا

هنا ابن عنين يهجو الهند في اطار شوقه إلى الشام، ويدعو على الهند – التي يبدو واضحاً أنه ملّ المقام بها– بالدمار سواء بالصواعق أو الحروب.

الخاتمـة:

بناء على ما سبق، يمكنني القول إنّ هجاء المدن والأقاليم في عصر حروب الفرنجة كان نوعا مهماً من أنواع الهجاء التي سادت في فترة الدراسة، فقد قال فيه عدد غير قليل من الشعراء، وهجيت سبع عشرة مدينة، كان أكثرها تعرضا للهجاء بغداد، وخمسة أقاليم كان أكثرها تعرضاً للهجاء مصر.

أما الأسباب التي أدت إلى انتشار هذا النوع من الهجاء، وشيوعه، فبلغت ثمانية أسباب تراوحت بين عدم حصول الشاعر على مبتغاه من المدينة، أو الإقليم، ونفثة المصدور، والظلم والبهتان.

إنّ هذه الدراسة– فيما أرى– من الممكن أن تبنى عليها دراسة أوسع لهذا النوع من الهجاء، دراسة تتناول نشأته، وتطوره عبر العصور، مع إمكانية أن يضاف إليه أماكن السكن، والمرافق العامة باعتبارها جزءا من الوطن الخاص والعام لأفراد المجتمع.

الهوامش:

١. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة هجا.

٢. انظر: يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي، ص ٣٣٩.

٣. انظر: شوقي ضيف، فصول في الشعر، ص٢٠.

٤. انظر: عبد الجليل عبد المهدي، الحياة الأدبية، ص١٠٠.

٥. انظر: ابن رشيق، العمدة، ١/١١٨.

٦. انظر:ابن رشيق، م.ن.، ١/١٢٠-١٢١.

٧. ابن حجّة الحموي، ثمرات الأوراق، ص٧٧.

٨. انظر: يحيى الجبوري، م.س.، ص٣٤١.

٩. ابن رشيق، م.س.، ٢/١٧١.

١٠. يحيى الجبوري، م.س.، ص٣٥٠.

١١. ابن رشيق، م.س.، ٢/١٧٢.

١٢. ابن حمدون، التذكرة، ٥/٩٢.

١٣. انظر: يحيى الجبوري، م.س.، ص ٣٦١.

١٤. انظر: الكفراوي، الشعر العربي، ص ١٣٣.

١٥. خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص٤٧٢.

١٦. انظر: محمد حسين، الهجاء، ص٣٠.

١٧. انظر: محمد هدارة، اتجاهات الشعر، ص٤٣٠-٤٣٣.

١٨. أبو نواس، الديوان، ص٥٤٦.

١٩. انظر: أبو نواس، م.ن. ص٥٤٧.

٢٠. انظر: عبد الجليل عبد المهدي، م.س.، ص١٠٠.

٢١. انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٢٣٦-٢٣٨؛ أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص٨٠-٨٣؛ خالد يوسف، م.س.، ص٤٧٠-٤٩٢؛ شفيق الرقب، شعر الهجاء في بلاد الشام، ص ١٠٧-١٥٨.

٢٢. انظر: محمد الهرفي، شعر الجهاد، ص٧٦-٧٨.

٢٣. محمد زغلول سلام، م.س.، ص٢٣٦.

٢٤. انظر: خالد يوسف، م.س.، ص ٤٧٩–٤٨٠.

٢٥. انظر: شفيق الرقب، م.س.، ص١٢٢–١٢٤.

٢٦. ابن حمدون، م.س.، ٥/٩٢–٩٣.

٢٧. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/١٣٦.

٢٨. انظر: ياقوت الحموي، م.ن.، ١/١٣٨.

٢٩. انظر: ياقوت الحموي، م.ن.، ١/٥٢٢–٥٢٣؛ ابن سعيد الاندلسي، النجوم الزاهرة، ص٣٥٢.

٣٠. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ١/١٤١–١٤٢.

٣١. ياقوت الحموي، م.س.، ١/١٤٢.

٣٢. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ١/٢٠٦.

٣٣. العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء العراق، ٣/٣٨.

٣٤. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ١/٣٥٤.

٣٥. ابن عنين، الديوان، ص ٢١١.

٣٦. ابن عنين، م.ن.، ص ١٤٤–١٤٥.

٣٧. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ١/٤٤١.

٣٨. ابن سناء الملك، الديوان، ٢/٥٨١.

٣٩. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ١/٤٥٦–٤٦٧.

٤٠. سبط ابن التعاويذي، الديوان، ص ٤٧.

٤١. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص٤٧–٤٨.

٤٢. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص ١٣٩.

٤٣. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص ١٣٩.

٤٤. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص ١٤٠.

٤٥. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص١٤١.

٤٦. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص ٤٥٥.

٤٧. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص ٢١٧.

٤٨. سبط ابن التعاويذي، م.ن.، ص ٣٣٧.

٤٩. ابن عنين، م.س.، ص ٢٣٤.

٥٠. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/١٩.

٥١. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/١٢٠.

٥٢. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٢٣٥.

٥٣. ابن النبيه، الديوان، ص٤٥٥؛ وانظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٢٣٥.

٥٤. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٤/٤٦.

٥٥. ابن منقذ، الديوان، ص ١٥٧.

٥٦. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٢٨٢.

٥٧. ابن عنين، م.س.، ص ٢٣٠–٢٣١.

٥٨. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٣٠٠.

٥٩. ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٣٠٠.

٦٠. ابن الشحنة، الدرّ المنتخب، ص ٢٧٣–٢٧٤.

٦١. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٤٦٣.

٦٢. ابن منير الطرابلسي، شعر ابن منير، ص ١١٧.

٦٣. العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ٣/١٢٤.

٦٤. ابن الساعاتي، الديوان، ٢/٢٣؛ محمد سلام، م.س.، ص ٣٠٣.

٦٥. انظر: محمد زغلول سلام، م.س.، ص ٣٠٣.

٦٦. ابن الساعاتي، م.س.، ٢/١١٥.

٦٧. ابن سناء الملك، الديوان، ٢/٥٨٣.

٦٨. عوض الصالح، جمال الدين بن يحيى، ص ٤٠١.

٦٩. عوض الصالح، م.ن.، ص٣٣٨.

٧٠. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٤٧٨.

٧١. ابن الشعار، قلائد الجمان، ٦/١٠٩.

٧٢. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٤٩٢.

٧٣. ياقوت الحموي، م.س.، ٢/٤٩٢.

٧٤. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٣/١٣١.

٧٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ٣/٤٦٩.

٧٦. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٣/٢٦٢.

٧٧. ابن الشعار، م.ن.، ٦/١١١.

٧٨. انظر: ياقوت الحموي، م.س.، ٥/٣٣١.

٧٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/٣٣٢.

٨٠. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١٣/٨٧.

٨١. علي أحمد سعيد، ديوان الشعر العربي، ٣/٩١.

٨٢. ابن سناء الملك، م.س.، ١/٣٠٤.

٨٣. البقرة، ٢/٦١.

٨٤. سبط ابن التعاويذي، م.س.، ص١٤٢.

٨٥. ابن عنين، م.س.، ص١٣٩–١٤٠.

٨٦. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/٤٥.

٨٧. ابن عنين، م.س.، ص٣٢–٣٣.

٨٨. أبو الصلت، الرسالة المصرية، ص١٣.

٨٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/٤٥.

٩٠. العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء مصر، ٢/١٢٩. ولم أهتد إلى سنة وفاة الشاعر شلعلع، لكنه من شعراء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، قال العماد الأصفهاني في ترجمته: "من أهل عصرنا هذا": العماد الاصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء مصر، ٢/١٢٤.

٩١. التلعفري، الديوان، ص٧. والدوبيت: لفظ فارسي مكوّن من مقطعين، دو: معناها اثنان، وبيت: معناها بيت. وهو وزن فارسي، له أنواع مختلفة الأسماء والأشكال وأشهرها الرباعي المعرّج الذي يكون روي الشطر الثالث فيه مخالفاً لرويّ الأشطر الثلاثة الأخرى. وسمّاه العرب الرباعي. انظر: ممدوح حقي، العروض الواضح، ص١٦٤.

٩٢. أسامة بن منقذ، م.س.، ص ١٥٨.

٩٣. انظر: أسامة بن منقذ، م.س.، ص١٥ـ٥.

٩٤. ابن الساعاتي، م.س.، ٢/٧٠.

٩٥. المحبي، خلاصة الأثر، ١/٣٠٤.

٩٦. ابن عنين، الديوان، ص٧٩.

المصادر والمراجع:

أ. المصادر:

١. القرآن الكريم.

٢. ابن حجة الحموي، علي بن عبد الله (ت٨٣٧/١٤٣٤)، ثمرات الأوراق، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧/١٤١٧.

٣. ابن حمدون، محمد بن الحسن (ت٥٦٢/١١٦٦)، التذكرة، تحقيق إحسان عباس وزميله، ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٩٦،م٢.

٤. ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق(ت٤٥٦/١٠٦٣)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣ [تمتاز بدقة الضبط والزيادة في الشرح والتفصيل]، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٣/١٣٨٣، جزءان.

٥. ابن الساعاتي، علي بن رستم (ت٦٠٤/١٢٠٧)، الديوان، تحقيق أنيس المقدسي، بيروت:المطبعة الأميركانية، ١٩٣٩، ج٢، (الجامعة الأمريكية، منشورات كلية العلوم والآداب، سلسلة العلوم الشرقية: الحلقة السادسة عشرة).

٦. سبط ابن التعاويذي، محمد بن عبيد الله (ت ٥٨٣/١١٨٧)، الديوان، اعتنى بنسخه وتحقيقه د.س.مرجليوث، مصر: مطبعة المقتطف، ١٩٠٣.

٧. ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت ٦٨٥/١٢٨٦)، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة: القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، تحقيق حسين نصّار، ط٢، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠، (دار الكتب والوثائق القوميّة: مركز تحقيق التراث).

٨. ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر (ت٦٠٨/١٢١٤)، الديوان، تحقيق محمد إبراهيم نصر وزميله، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٩/١٣٨٨، جزءان (وزارة الثقافة: المكتبة العربية).

٩. ابن الشحنة، محمد بن الشحنة (ت٨٩٠/١٤٨٥)، الدّر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، سورية، دمشق: دار الكتاب العربي، عالم التراث، ١٤٠٤/١٩٨٤، (سلسلة تواريخ المدن السورية:١).

١٠. ابن الشعّار الموصلي، كمال الدين المبارك (٦٥٤/١٢٥٦)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان، تحقيق كامل الجبوري، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦/٢٠٠٥، ج٦.

١١. أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز (ت٥٢٨/١١٣٣)، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٠/١٩٥١، (نوادر المخطوطت: ١).
١٢. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد (ت٥٩٧/١٢٠٠)، خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، دمشق: المطبعة الهاشمية، ج٢، ١٣٧٨/١٩٥٩،ج٣، ١٣٨٣/١٩٦٤، (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق).
خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، نشره أحمد أمين وزميلاه، ج١، ١٣٧٠/١٩٥١، ج٢، لا.ت. (لجنة التأليف والترجمة والنشر).
١٣. ابن عنين، محمد بن نصر (ت٦٣٠/١٢٣٢)، الديوان، تحقيق خليل مردم بك، ط٢ [تمتاز بزيادات بخط المؤلف]، بيروت: دار صادر، لا.ت.
١٤. المحبي، محمد أمين (ت ١١١١/١٦٩٩)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة: المطبعة الوهبية، ١٢٨٤، ج١.
١٥. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١/١١٥٣)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٣٨٨/١٩٦٨.
١٦. ابن منقذ، أسامة بن منقذ (ت٥٨٤/١١٨٨)، الديوان، تحقيق وتقديم أحمد بدوي وزميله، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٣ (وزارة المعارف العمومية، الإدارة العامة للثقافة، إدارة نشر التراث العربي).
١٧. ابن منير الطرابلسي، أحمد بن مفلح (ت٥٤٨/١١٥٣)، شعر ابن منير الطرابلسي، جمع وتحقيق وتقديم سعود محمود عبد الجابر، ط١، الكويت: دار القلم، ١٤٠٢/١٩٨٢.
١٨. ابن النبيه المصري، علي بن محمد (٦١٩/١٢٢٢)، الديوان، تحقيق عمر محمد الأسعد، ط١، دار الفكر، ١٩٦٩.
١٩. أبو نواس، الحسن بن هاني(ت١٩٥–١٩٧/ ٨١٠–٨١٢)، الديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، بيروت: دار الكتاب العربي، لا. ت.
٢٠. ابن واصل، محمد بن سالم (ت ٦٩٧/١٢٩٧)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة: إدارة احياء التراث القديم، وزارة المعارف المصرية، إدارة الثقافة العامة، ١٩٥٣، ج٣.
٢١. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦/١٢٢٨)،

- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، ط٣ [منقحة ومصححة وفيها زيادات]، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٠/١٩٨٠، مجلد٧، ج١٣.
- معجم البلدان، بيروت: دار صادر، لا.ت. ٥ أجزاء.

ب ـ المراجع:

١. بدوي (أحمد)، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط٢، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩.

٢. الجبوري (يحيى)، الشعر الجاهلي؛ خصائصه وفنونه، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣/١٩٨٣.

٣. حسين (محمد)، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ط٣، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٠.

٤. سعيد (علي أحمد)، ديوان الشعر العربي، ط١، صيدا وبيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ج٣.

٥. حقّي (ممدوح)، العروض الواضح، ط١٤، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٠.

٦. سلام (محمد زغلول)، الأدب في العصر الأيوبي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧.

٧. الصالح (عوض محمد)، جمال الدين يحيى بن مطروح، حياته وشعره، ط١، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ١٩٩٥.

٨. ضيف (شوقي)، فصول في الشعر ونقده، مصر: دار المعارف، ١٩٧١.

٩. عبد المهدي (عبد الجليل)، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، ط١، عمان: مكتبة الأقصى، ١٣٩٧/١٩٧٧.

١٠. ١٠. الكفراوي(محمد)، الشعر العربي بين الجمود والتطور، ط٤، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦٩.

١١. ١١. هدارة (محمد)، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط٢، القاهرة: دار المعارف، لا. ت، (مكتبة الدراسات الأدبية: ٢٩).

١٢. ١٢. الهرفي (محمد)، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، ط٣، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠/١٩٨٠.

١٣. ١٣. يوسف (خالد)، الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، ط١، بيروت: دار النهضة العربية، ٢٠٠٣.

ج ـ الدوريات:

الرقب (شفيق)، شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٥٥، السنة الثانية والعشرون، ذو القعدة ١٤١٨ ربيع الآخر ١٤١٩/ تموز– كانون الأول ١٩٩٨، ص١٠٧–١٦٥.